ملحق

علم الأصوات وأهميته
فى دراسة اللغة

علم الأصوات وأهميته فى دراسة اللغة

يتألف الكلام الإنسانى من سلسلة من الأصوات الصادرة طواعية واختياراً عن الإنسان فى الموقف اللغوى المعين . والإشارة إلى الموقف اللغوى هنا تعنى أن هناك فى الصورة شخصاً أو أشخاصاً آخرين يستقبلون هذه الأصوات التى تربطهم بالمتكلم ربطاً اجتماعياً من شأنه أن يؤدى إلى التعاون وتسيير دفة الأمور وتصريف شئونه الحياة[1] ، أو التى تؤثر فى هؤلاء السامعين تأثيراً يقتضى منهم سلوكاً معيناً أو رد فعل من نوع خاص[2] . وتعنى هذه الإشارة كذلك أن الأصوات يجب أن تكون مرتبة على نسق خاص ، وأن تكون جارية على سنن المعهود لدى أهل البيئة المعينة . ومعنى ذلك بالضرورة أن اللغة لا يتحقق وجودها دون حضور متكلم وسامع : موجودين معاً فى مكان واحد وزمان واحد . أو بعبارة أخرى — كما صرح بذلك جاردنر — الكلام لايتحقق إلا بأربعة جوانب : المتكلم والسامع والكلمات والشىء المتحدث عنه[3] .

والأصوات اللغوية معقدة إلى أقصى حد ؛ فهى ليست مجرد ضوضاء يحدثها المتكلم فى الهواء ؛ وإنما هى أصوات ذات جوانب متعددة وخصائص متباينة . ودراستها دراسة لغوية دقيقة تقتضينا أن نبحثها على مستويات مختلفة ، بادئين — كما هى العادة — بدراسة خصائصها أو جانبها الصوتى ، أى ذلك الجانب الذى يتمثل فى آثار تلك الجهود العضلية الكثيرة التى يقوم بها جهاز النطق ، فتحدث ذبذبة فى الهواء منتقلة بعد ذلك إلى أذن السامع ولهذه الأصوات بالإضافة إلى ذلك جوانب وخواص أخرى تتمثل فى مميزاتها الصرفية والنحوية إلخ . . .

أما ذلك الفرع من العلوم الذى يدرس الجانب الأول المشار إليه سابقاً فهو علم الأصوات Phonetics . وهو علم ليس بالجديد فى الدراسات اللغوية ، وإنما تضرب أصوله بعيداً إلى أعماق التاريخ . فقد عرفه الهنود والإغريق والرومان والعرب ، وأسهم كل

---

(١) يمثل هذا الرأى وجهة نظر المدرسة الاجتماعية فى العملية اللغوية .

(٢) يمثل هذا الرأى وجهة نظر المدرسة الميكانيكية أو السلوكية ، ومن أنصارهم بلومفيلد فى كتابه المشهور : Language .

(٣) انظر : Gardiner : Speech and Language, p. 62 .

قوم منهم بنصيب فى هذه الدراسات . ولسنا ندعى أنهم — منفردين أو مجتمعين — قد وصلوا بعلم الأصوات إلى مستوى علمى دقيق . يقرب أو يكاد يقرب مما نعهده فى العصور الحديثة ، ولكنهم بالرغم من ذلك قد بذلوا جهوداً موفقة فى هذا المضمار إلى درجة تسترعى انتباه الدارسين فى وقتنا الحاضر .

على أن هذه الدراسات الصوتية — بالرغم من اهتمام الأقدمين بها — لم تلق العناية اللائقة بها فى العصور المتتالية بعد ذلك . ولم تحظ بما حظيت به البحوث اللغوية الأخرى من الدرس الشامل والبحث المستفيض . وأغلب الظن أنها لم تدخل فى عداد البحوث العلمية الدقيقة إلا فى أواخر القرن الماضى أو قبل ذلك بقليل ، حينما اتضحت قسمات الدراسات اللغوية بعامة وتحددت معالمها ورأى الباحثون ضرورة تفريعها فروعاً مختلفة يتناول كل منها جانباً من جوانب اللغة وكان علم الأصوات واحداً من هذه الفروع .

ولست أدرك حقيقة السر فى إهمال الدراسات الصوتية فى أثناء هذه الحقبة الطويلة التى تقع بين تلك العصور الأولى التى عرفت بازدهار العلوم الفكرية والإنسانية بخاصة ، وتلك العصور الحديثة التى تتسم بطابع التقصى والبحث فى كل أنواع العلوم وضروب المعرفة . فلربما يرجع الإهمال فى هذه الفترة الوسطى من الزمن إلى نوع من الكسل الذهنى الذى يصيب الناس من وقت إلى آخر . أو ربما يرجع الإحجام عن الخوض فى دقائق الدراسات الصوتية وتفاصيلها بصورة تعادل أو تكاد تعادل نمط البحث فى الصرف . والنحو مثلا — ربما يرجع ذلك إلى الاعتقاد بأنه من السهل تعلم اللغة والسيطرة عليها بل إتقانها دون معرفة بأصواتها معرفة جيدة ، على عكس الحال فى النحو والصرف اللذين لا تتم معرفة أسرار اللغة إلا بدراستها وحقيقة الأمر أن هذا وهم فاسد واعتقاد خاطئ . يدل على جهل بحقائق الأمور وطبائع الأشياء . إن الاختلاف فى النطق — كالاختلاف فى قواعد النحو مثلا — منشؤه اختلاف البيئة الاجتماعية والخواص الفردية . فإن عدّ الاختلاف فى قواعد النحو خروجاً على المعيار السليم والمقياس الصحيح ، حكم بالمثل على الاختلاف فى النطق ، وكما يجب التنبيه على الأول يلزم التنبيه على الثانى ، ومن ثم وجبت دراسة الأصوات وجوب دراسة النحو والصرف ؛ إذ السيطرة على اللغة لا تتم بدون دراسة أصواتها ، شأنها فى ذلك شأن العلمين المذكورين تماماً .

على أنه من الجائز أن ننسب هذا الإهمال وذلك الإحجام عن تقصى مسائل الأصوات

ومشكلاته إلى انعدام وسائل الدراسة الدقيقة لدى هؤلاء العلماء آنذاك . فالدارسون فى هذه العصور المشار إليها سابقاً — شأنهم فى ذلك شأن أسلافهم من القدامى — لم تكن لديهم إلا وسيلة واحدة من وسائل البحث الصوتى ، وهى الاعتماد على «الملاحظة الذاتية» Introspection ومن هنا جاءت نتائجهم متشابهة أو متقاربة ولم يستطيعوا أن يأتوا بجديد يذكر ، وكان هذا بالطبع داعياً لتراخيهم فى الدراسة والاكتفاء بما أتى به الأقدمون .

أما فى العصور الحديثة فيختلف الأمر عنه فى الفترات السابقة . فقد هيأت الظروف للدارسين فرصاً أفضل من ذى قبل ، ووضعت فى أيديهم أنماطاً دقيقة من وسائل البحث فى الأصوات ، وهى وسائل لم يعدها السابقون ولم يعرفوها . لقد أضحت الدراسة الصوتية الحديثة تستعين بفروع العلم الأخرى كوظائف الأعضاء والتشريح والفيزياء وغيرها ؛ وأصبحت تخضع للتجارب المعملية والتطبيقات العملية المختلفة . هذا بالإضافة إلى الوسيلة القديمة وهى الملاحظة الذاتية . وقد كان هذا كله بالطبع دافعاً قوياً إلى الدخول فى هذا الميدان من جديد ، وإلى السير فيه سيراً حثيثاً موفقاً ، حتى غدت الدراسات الصوتية الآن تضارع — فى دقتها وشمولها — غيرها من الدراسات اللغوية ، بل تفوقها وتمتاز عنها بخاصتها العلمية الموضوعية التى اكتسبتها من التجارب المعملية والآلية . تلك التجارب التى لا يعرف الصرف والنحو إليها سبيلا .

كل هذه الاحتمالات التى قدمناها لا شك أنها تصدق على الدراسات الصوتية عند العرب فى تلك العصور الطويلة التى تلت فترات النهضة الفكرية والازدهار العلمى فى البصرة والكوفة وبغداد . وليس من العسير أن نضيف سبباً آخر أدى إلى ركود البحث فى الأصوات على مستوى شامل واسع منذ أيام الرعيل الأول من علماء العربية حتى اليوم . ذلك أن الجهود الجبارة التى بذلها هؤلاء العلماء الأول فى دراسة الأصوات لم تجذب إليها إلا نفراً قليلا من الدارسين . وبخاصة أولئك الذين كانوا يشغلون بالقراءات القرآنية وتجويد القرآن الكريم . والحق أن كل الزيادات التى زيدت على أعمال الأولين من علماء الأصوات — كالخليل وسيبويه ، وابن جنى من بعدهما — وكل التفصيلات التى ظهرت فيما بعد وكل التطبيقات العملية لآثار هؤلاء العلماء وأمثالهم — هذه الزيادات والتفصيلات والتطبيقات كلها أو جلها إنما يرجع الفضل فيها إلى رجال « التجويد » أو علماء « الأداء القرآنى » كما يسمون أحياناً وهم وحدهم — تقريباً — الذين حملوا عبء هذه الدراسات وتولوا رعايتها من بعد وتابعوا

البحث فيها وإن كان ذلك بطريقة خاصة ومنهج معين. وهكذا انتقلت البحوث الصوتية — على ما يبدو — من الميدان اللغوى الدقيق إلى ميدان البحث فى مناهج «الأداء القرآنى». وظلت تتابع سيرها عبر الزمن فى هذا الميدان — بصورة أو بأخرى — حتى هذه اللحظة. ولم يشأ أن يعرج عليها أو ينتفع بها إلا عدد قليل من الباحثين فى علوم اللغة كبعض علماء البلاغة وبعض النابهين من علماء الصرف والنحو المتأخرين[1].

كل هذا كان مدعاة — فيما نظن — للوهم الفاسد بأن الدراسة الصوتية إنما هى من اختصاص علماء القراءات والتجويد. وأنها بمثابة علم خاص بالأداء القرآنى، وأنه لا ضير إذن على علماء اللغة إذا لم يتعرضوا لها ولم يعيروها التفاتاً. وقد أدى هذا بدوره — بطريق الشعور أو اللاشعور — إلى انغماض الدارسين المتأخرين من حول هذه الدراسة وإلى عدم التعرض لها، اللهم إلا فى إشارات يسيرة متناثرة هنا وهناك فى بحوثهم ومناقشاتهم اللغوية المختلفة.

وقد نسى هؤلاء أو تناسوا أن علم الأصوات لا يخدم القرآن الكريم وحده، وإنما يخدم كل أساليب الكلام على كل المستويات. بل إننا نضيف إلى ذلك فنقول: إن هذا العلم حين يخدم كتاب الله يقتضينا أن نعنى به أشد عناية، وأن نتعمق فى أصوله ودقائقه، وأن نوسع فى ميادينه بحيث تشمل كل العلوم اللسانية. حتى تظل عربيتنا سليمة صحيحة، إذ فى صحتها صحة أداء القرآن وسلامته. وأنه لمن العجيب أن يلقى الصرف والنحو والبلاغة وغيرها عناية فائقة من العلماء المتأخرين — وأن يتطرف البعض فى هذه العناية فيدخلوا فى التفصيلات والتعريفات العميقة — على حين لم يسعفهم ذكاؤهم فيرشدهم إلى ضرورة بذل مثل هذه العناية — أو ما دونها — فى دراسة الأصوات. كل هذا بالرغم من أنها كلها علوم ابتدعت فى الأصل من أجل المحافظة على كلام الله وتطورت فى كنفه. وفى أحضان تلك الحركات الفكرية والثقافية التى نهضت لخدمته والمحافظة عليه.

ومهما يكن من أمر فلا يزال بعض الناس — المثقفين منهم وغير المثقفين على سواء —

---

(١) نذكر من علماء البلاغة السكاكى وابن سنان الخفاجى وغيرهما فقد عرض كل واحد من هؤلاء للأصوات بصورة أو بأخرى. انظر مقدمة «مفتاح العلوم» للسكاكى و «سر الفصاحة» لابن سنان الخفاجى ومن علماء الصرف والنحو المتأخرين نشير إلى ابن يعيش فى شرحه على المفصل للزمخشرى وشمس الدين أحمد المعروف بديكنقوز وابن كمال باشا فى شرحيهما على «مراح الأرواح فى علم الصرف» لأحمد بن على بن مسعود.

غير مدركين لأهمية دراسة الأصوات اللغوية . معتقدين — خطأ — أنها نوع من الترف العلمى الذى لا يضيرنا إن نحن لم نأخذ منه بنصيب . وأغرب ما فى الأمر أن المشرفين على تعليم اللغات فى مدارسنا لم يتنبهوا هم الآخرون حتى الآن إلى أهمية هذه الدراسة ، وإلى ضرورة إدخالها ضمن مناهج التعليم على اختلاف مراحله . حتى يتسنى للمتعلم أن يجيد النطق الذى هو أساس كل تعليم لغوى . ومثل هذا الاهمال ملحوظ إلى حد ظاهر فى بعض وسائل الإعلام اللسانية كالتليفزيون . حيث لم يحاول المسئولون عن هذا الجهاز دراسة مشكلات النطق والأداء اللغوى الصحيح دراسة عميقة تتناسب وخطورة الدور الذى تقوم به هذه الأجهزة فيما يتعلق بالكلمة المنطوقة [1]

على أن هذا الإهمال فى أساسه إنما يرجع إلى جامعاتنا التى ظلت تتجاهل هذا العلم تماماً إلى عهد قريب جداً عندما رئى إدخاله ضمن مناهج التعليم فى كلية دار العلوم فى الخمسينيات من هذا القرن .

وقد تبعتها فى ذلك بعض الكليات محاولة اللحاق بهذا المعهد الذى كان له الفضل الأول فى تعريف الناس بهذا العلم فى صورته الحديثة فى مصر ، بل فى كل البلاد العربية .

وربما يدرك بعض الناس فائدة الدراسات الصوتية وأهميتها . ولكنهم يتهيبون فرضها فى المدارس خشية إرهاق التلاميذ وشغلهم بمشكلاتها ومصطلحاتها الكثيرة المعقدة ، وبخاصة فى صورتها الحديثة ، بعد أن اكتملت عناصرها واستقرت علماً متعدد الزوايا واسع الجنبات ويسجل يسبرسن هذه الخشية وهذا الشعور نحو هذا العلم فيقول : « إن الأشياء الحديثة تخيف الناس دائماً فهم يظنون — والفزع يملأ قلوبهم — أن التلاميذ حينئذ سوف يعانون من عبء ، يتمثل فى تعلم علم صعب جديد تمام الجدة ، وفى تعلم نوع جديد من الكتابة » (يقصد الكتابة الصوتية التى هى أحد أهداف الدراسات الصوتية) [2] . ولسوف يتساءلون فيما بينهم : ألا يكفينا ما فى الكتابة القديمة من نصب ومشقة ، فنشغل أنفسنا بالأبجدية

---

(١) أدركت الإذاعة منذ سنوات أهمية دراسة أصوات اللغة ، فجعلتها مادة أساسية من مواد معهد التدريب الإذاعى الذى يتلقى فيه المذيعون ومقدمو البرامج عدة دراسات تتعلق بمهنتهم .

كما أدرك هذه الأهمية كذلك المشرفون على معهد الفنون المسرحية ، فأدخلوا مادة « الصوتيات وقواعد النطق » فى منهج الدراسة هذا العام ، وألقوا إلينا بمسئولية تدريس هذه المادة لأول مرة فى تاريخ هذا المعهد .

(٢) الكتابة الصوتية Phonetic transcription نظام من الرسم ابتكر لتصوير النطق تصويراً دقيقاً ، حيث لا تستطيع الأبجديات الإملائية العادية orthographies الوفاء بهذا الغرض .

الجديدة بحروفها الفظيعة ؟ وربما يقولون : « لقد تعلمنا اللغات منذ زمن بعيد دون هذا الاختراع الحديث . ومن المؤكد أن الطريقة القديمة لا تزال صالحة ومناسبة »[١] .

ثم يجيب يسبرسن عن هذه المخاوف بقوله : « من المؤكد أن علم الأصوات لايخلو من صعوبات ومشكلات تحتاج إلى النظر والدراسات الشاقة ، شأنه فى ذلك شأن كل العلوم الأخرى . غير أن ذلك لا ينفى الحقيقة الواضحة وهى أن المجلدات الضخمة الكثيرة التى كتبت فى علم النبات مثلا لم تحفنا ولم تمنعنا من تعليم أطفالنا شيئاً ما عن النبات . وهناك فى العلوم الرياضية أشياء كثيرة يستعصى على الطفل العادى هضمها ، ولكنا مع ذلك مضطرون إلى تعليمه شيئاً عن الرياضيات . إن علم الأصوات ليس علماً جديداً ينبغى إضافته إلى مناهج الدراسة . إن كل ما نرمى إليه هو أن نأخذ منه القدر الذى يجعل منه معيناً إيجابياً فى تعليم شىء كان لابد من تعليمه بأى حال من الأحوال » . ويستمر يسبرسن فى كلامه قائلا : « إننا نريد أن نقدم إلى المدارس شيئاً عن الدراسات الصوتية ، لأننا مقتنعون — نظرياً وعلمياً — أننا بفضل هذا العلم نستطيع — بصورة أكد وبطريقة أيسر — أن نحصل على نطق أحسن وأسلم فى وقت أقصر مما لو حاولنا ذلك دون معرفة بعلم الأصوات . أما فيما يتعلق بهذا الشىء « الفظيع » المسمى بالكتابة الصوتية فهى ليست أبجدية جديدة ، بل إنها ليست جديدة جدة الحروف الجرمانية ، وأقل فى الجدة بكثير من الأبجدية الإغريقية التى يشق بها التلاميذ — دون أية فائدة — بالإضافة إلى الأسماء الجديدة لحروف هذه الأبجدية »[٢] .

وإذا كان هناك من شك بعد ذلك فى أهمية علم الأصوات ، فيكفى أن نزيل هذا الشك بإيراد أمثلة مما يمكن أن يقدمه هذا العلم من خدمات للغة ودراستها على المستويين العام والخاص جميعاً ، أو فى المجال التطبيقى والمجال النظرى المتخصص على السواء .

---

(١) See, Jespersen, How to Teach a Foreign Languge, p. 142.

(٢) المرجع السابق ص ١٤٢ — ١٤٤

أولاً — فى المجال التطبيقى

تظهر آثار دراسة الأصوات فى هذا المجال فى صور عدة ، نكتفى منها بذكر الأمثلة الآتية :

١ — فى تعليم اللغة القومية :

الدراسات الصوتية وسيلة من وسائل تعلم اللغة القومية تعلماً سليماً ، وسبيل من سبل رقيها والمحافظة عليها . فالمتعلمون — وبخاصة فى المراحل الأولى — معرضون للخطأ فى نطق هذه اللغة وللانحراف عن الطريقة الصحيحة فى أدائها . ذلك ، لأن هؤلاء المتعلمين يأتون من مناطق مختلفة وينتمون إلى بيئات اجتماعية غير متجانسة . ولكل واحد من هؤلاء عاداته النطقية التى يؤدى بها لهجته المحلية .

وهذه العادات لا بد أن يظهر أثرها بصورة أو بأخرى فى نطق اللغة القومية التى تسمى فى الاصطلاح اللغوى باللغة المشتركة Common Language ومن أمثلتها اللغة الفصحى فى المجتمع العربى . فإذا ما أرشد هؤلاء المتعلمون إلى أصوات هذه اللغة سهل عليهم إجادة نطقها وحسن أدائها واستطاعوا بالتدريج أن يتخلصوا من العادات النطقية المحلية .

وهكذا نستطيع أن نظفر بشيئين مهمين :

أولهما : التقريب بين عادات النطق المحلية المختلفة وتذويب الفروق بينها بقدر الطاقة . وذلك أمر له مغزى عميق فى نظرنا ؛ إذ هو يدل على أن هناك نوعاً من التقارب بين طبقات الأمة الواحدة فى مجالات الحياة المتنوعة : الاجتماعية منها والاقتصادية والثقافية .

ثانيهما : تخليص اللغة المشتركة من الآثار الصوتية ذات الطابع المحلى الضيق . وهذا الأمر فى حد ذاته هدف سام يسعى إليه المصطلحون دائماً ، وبخاصة فى عهود القوميات وفترات النهضات ، حيث توجب عليهم الظروف العمل على تكوين لغة قومية مشتركة تصلح للتفاهم العام بين أبناء الأمة الواحدة .

وقد نجحت بعض دول الغرب فى هذا الشأن إلى حد ملحوظ . وكان للإنجليز بالذات

دور معين مشهور نحو لغتهم . لقد عمدوا إلى الحد من سيطرة اللهجات وتنوعها بنشر الثقافة والتعليم على أوسع نطاق . ومن ثم توصلوا إلى تكوين لغة مشتركة قادتهم فى النهاية إلى نتيجتين واضحتين :

(ا) تمكينهم من التعليم والتثقيف بلغة قومية موحدة بالرغم من تعدد البيئات الجغرافية والاجتماعية لبلادهم .

(ب) تسهيل مهمة تعليم اللغة الإنجليزية للأجانب .

ولقد ساعد هذا التوحيد على نشر لغتهم فى جميع أنحاء العالم . وكان من أهم وسائل هذا التوحيد اللغوى الاهتمام الكبير بدراسة أصوات هذه اللغة وتعليم هذه الأصوات للمواطنين والأجانب على السواء .

ولا يظنن ظان على كل حال أننا ندعى إمكانية القضاء على العادات النطقية المحلية قضاء تامًّا بتعليم الأصوات . فذلك أمر مستحيل غير مستطاع . أما الذى ندعيه فهو أن تعليم أصوات اللغة المشتركة تعليماً جيداً أمر ضرورى إذا كان لنا أن نحافظ على هذه اللغة وأن نعمل على إجادتها والتمكن منها .

وقد لا يدرك البعض أن العادات النطقية فى اللهجات العربية المحلية تختلف عنها فى اللغة الفصيحة . والحق أن الاختلاف موجود وله صور كثيرة منها :

١ — الاختلاف فى مخارج الأصوات أو فى صفاتها أو فيهما معاً . ويتضح ذلك مثلا فى الفرق بين القاف العامية فى بعض جهات الوجه البحرى والصعيد وبين القاف الفصيحة[1] . فالأولى من أقصى الحنك ، وهى صوت يشبه صوت الجيم القاهرية (G) ، حين تنطق الثانية من اللهاة وهى مهموسة كما نسمعها من قراء القرآن الكريم . وكذلك تنطق القاف همزة فى لغة القاهرة وبعض المدن الأخرى ، والهمزة — كما هو معروف — صوت حنجرى لا هو بالمهموس ولا بالمجهور ، ولكن القاف الفصيحة لهوية مهموسة كما قدمنا .

٢ — الاختلاف فى الأصوات مع المحافظة على المخارج . وذلك كالميل إلى ترقيق أصوات التفخيم (وهى الصاد والضاد والطاء والظاء) ، وإلى ترقيق بعض الأصوات الأخرى

---

(١) يفهم من بعض الآثار اللغوية أن هاتين الصورتين لنطق القاف كانتا موجودتين فى اللهجات العربية القديمة ، ولكن هذا لا يناقض ما نقرره هنا وهو وجود خلاف فى نطق هذا الصوت فى العامية وفى الفصحى المعاصرة .

فى غير مواقع الترقيق . وذلك كترقيق الراء فى نحو « رماه » بالرغم من أنها مفخمة فى هذا الموقع نفسه فى اللغة الفصيحة . ومثل ذلك أيضاً الميل إلى تفخيم القاف أحياناً فى غير مواقع التفخيم .

٣ — إسقاط بعض الأصوات نهائيًّا والاستعاضة عنها بأصوات أخرى وذلك كإسقاط الثاء والاستغناء عنها بالتاء . كما فى نحو تعلب (ثعلب فى الفصيح) أو بالسين كما فى سورة (ثورة فى الفصحى) . وهذا الشىء نفسه ملحوظ كذلك فى الذال التى يستعاض عنها فى اللهجات العامية بالدال تارة وبالزاى تارة أخرى نحو دهب (بدلا من ذهب) وزكى (بدلا من ذكى) .

٤ — الاختلاف فى مخرج بعض الأصوات مع الاحتفاظ بالصفات . ويلاحظ ذلك مثلا فى الظاء العامية التى تنطق من مخرج الزاى تقريباً ، ولكن مع بقاء الخاصة المميزة للظاء الفصيحة وهى التفخيم . وهذه الظاء الأخيرة مخرجها من بين الأسنان .

٥ — هناك فروق واضحة فى الحركات ونظامها . ففى العاميات اليوم حركتان لا وجود لهما فى اللغة الفصيحة المعاصرة . وهاتان الحركتان تظهران فى نحو « يوم » و « بيت » العاميتين ، وهما ما سماهما الزميل الدكتور تمام حسان « الرفعة » و « الخفضة » (أى الضمة المائلة والفتحة المائلة مع الطول فى المثالين المذكورين)[1] . يضاف إلى ذلك بالطبع تلك الفروق الدقيقة التى توجد فى الحركات المتناظرة فى الحالتين . فالفتحة فى العامية مثلا لها صور تختلف فى القلة والكثرة عن صور الفتحة فى اللغة الفصيحة بسبب ما يعتريها من صفات كالتفخيم والترقيق .

٦ — فإذا ما وصلنا إلى مستوى أرقى وهو مستوى المقطع وجدنا أمثلة أخرى للخلاف الصوتى بين العاميات واللغة الفصيحة ، فالنظام المقطعى فيهما مختلف إلى حد ملحوظ . نقول فى العامية : [فْهِمْت] ، فهذه الكلمة مكونة فى مقطعين اثنين هما [فْ/هِمْت] على حين أن ما يقابل هذه الكلمة فى اللغة الفصيحة وهى [فَهِمْتُ] مكونة من ثلاثة مقاطع وهى [فَ/هِمْ/تُ] . ولا يخفى أن الاختلاف فى التركيب المقطعى يعنى شيئين

---

(١) انظر : مناهج البحث فى اللغة للدكتور تمام حسان ص ١٠٨ سنة ١٩٥٥ . والكلام هنا عن الفصحى فى صورتها العامة ، أى بغض النظر عن لهجاتها القديمة التى يروى أنها كانت تحتوى على حركات من هذا النوع ، عرفت « بالإمالة » فى الاصطلاح القديم .

مهمين : هما : الاختلاف فى توزيع الحركات والاختلاف فى نظام النبر . وهاتان الصورتان الأخيرتان دلالتان واضحتان على شدة الخلاف الصوتى بين اللهجات العامية واللغة الفصحى . فإذا ما تشعب البحث وأقدمنا على دراسة اللهجات العامية المنتشرة فى أرجاء الوطن العربى ظهر الخلاف الصوتى بصورة أقوى وأعمق . ولسنا نجاوز الحقيقة فى شىء حين نقرر أن بعض هذه اللهجات قد استحدثت لها نظماً مقطعية تكاد تقطع الصلة بينها وبين اللغة الفصيحة فى هذا الشأن . من ذلك مثلا اللهجات العامية فى شمال لبنان . حيث اتبعت هذه اللهجات فى تركيبها المقطعى نظاماً تأثرت فيه باللغة السوريانية .

٧ — أضف إلى كل ما تقدم الاختلاف فى التنغيم وموسيقى الأداء الكلامى intonation ، فالصورة الكلامية لها نماذج تنغيمية موسيقية مختلفة فى الأسلوبين العامى والفصيح . إننا لا ننكر اتفاق بعض صور الأساليب المتقابلة فى الإطار الموسيقى العام ، ولكن الخلافات موجودة فى الدقائق الجزئية التى تملأ جنبات هذا الإطار .

٢ — تعلم اللغات الأجنبية :

وتظهر أهمية علم الأصوات بصورة عملية واضحة فى تعلم اللغات الأجنبية وتعليمها . فمن المعروف أن لكل بيئة لغوية عاداتها النطقية الخاصة بها . فإذا أقدم أصحاب لغة ما على تعلم لغة أخرى كانوا عرضة لأن يخطئوا فى أصوات هذه اللغة الأخيرة . وأن يخلطوا بين أصواتها وأصوات لغتهم . بسبب تأثرهم بعاداتهم النطقية . ويمكن توضيح ذلك بالإشارة إلى بعض الأخطاء الشائعة فى نطق تلاميذ المراحل الأولى من التعليم — أو غيرهم ممن يفوقونهم سنًّا وثقافة — لأصوات اللغة الإنجليزية .

(ا) يميل بعض المتعلمين إلى نطق الصوت الإنجليزى [P] كما لو كان مجهوراً . وإلى نطق الصوت [V] كما لو كان مهموساً . وذلك بسبب تأثر هؤلاء المتعلمين بنطق نظيرهما فى اللغة العربية . وهما الباء [b] وهى صوت مجهور والفاء [f] وهو صوت مهموس .

(ب) يخطئ كثير من المتعلمين فى النطق حين يقابلون بصوتين ساكنين فى أول الكلام ، ويلجئون إلى إدخال نوع الهمز أو التحريك فى أول الكلمة ، كما فى نحو Station

وهم فى ذلك متأثرون بعادات النطق فى العربية . حيث لا تبدأ كلمة فيها بصوتين ساكنين متتاليين .

(جـ) وكذلك الحال إذا توالى صوتان ساكنان أو أكثر فى وسط الكلام دون حركة فاصلة . فإن بعض الناس يعمدون إلى حشر حركة خفيفة بين هذه السواكن . كما فى نطقهم للكلمة الإنجليزية Simplicity : فيقولون : Simpilicity . وهو نطق خاطئ .

(د) يخطئ العرب بعامة فى نطق الراء الإنجليزية . إذ هم يظهرونها فى النطق فى كل المواقع تقريباً . والقاعدة العامة فى اللغة الإنجليزية البريطانية النموذجية Standard British English (فى مقابل الإنجليزية الأمريكية = American English هى أن الراء لا تنطق إذا وقعت طرفاً كما فى نحو Singer أو وقعت فى وسط الكلمة غير متبوعة بحركة كما فى نحو garden . وإنما تنطق الراء فى هذه اللغة إذا أتبعت بحركة سواء أكانت وسطاً أو فى ابتداء الكلمة مثل Present و red و right و rob وإلخ .

(هـ) على أن أكثر الأخطاء إنما تظهر فى نطق الحركات الإنجليزية وبخاصة تلك الحركات المعروفة بالحركات المركبة diphthongs وفى نطق الحركات المفردة التى لا نظير لها فى اللغة العربية . فمن ذلك مثلا .

١ — الميل إلى نطق الحركتين الإنجليزيتين المركبتين [ou و ei] فى نحو go و name كما لو كانت الأولى « رفعة » طويلة والثانية « خفضة » طويلة . كما فى نحو « يوم » و« بيت» العاميتين. وشتان بين الحركة والحركة الطويلة المركبة : فالأولى إنما تختلف عن الحركة القصيرة فى الكم فقط مع بقاء أعضاء النطق فى موضعها مدة ملحوظة من الزمن ، كما هو الحال مع الحركة القصيرة. على حين أن الحركة المركبة صوت « انزلاقى » agliding Sound تتخذ أعضاء النطق به الوضع الخاص بحركة من الحركات . ثم تنقل مباشرة دون توقف ملحوظ نحو الوضع الخاص بحركة أخرى .

٢ — الميل إلى نطق الحركة الإنجليزية المركبة [iə] فى here [hiə] كما لو كانت كسرة طويلة [hiir] مثل « بير » العامية أو خفضة طويلة heer كما فى « بيت » العامية .

٣ — الميل إلى نطق الحركة الإنجليزية المركبة [uə] فى Poor [Puə] كما لو كانت

ضمة طويلة [Puur] مثل « سور » العربية .

٤ — وتوجد أخطاء كذلك — كما قلنا — فى نطق بعض الحركات الإنجليزية المفردة، كما فى نطق الحركة [e] فى get إذ يميل بعض الناس إلى نطقها كما لو كانت كسرة خالصة كما فى نحو « ست » . والمعروف أن الحركة [e] وهى نوع من الفتح الممال لا توجد فى اللغة الفصحى العامية . وإنما توجد فى بعض اللهجات القديمة فى مواقع مخصوصة ويكثر وجودها فى اللهجات المصرية العامية كما فى نحو بيتكم [betkum] .

هذه أمثلة قليلة من الأخطاء الصوتية التى يقع فيها العرب حين يتكلمون باللغة الإنجليزية . وما نظن أولئك الذين يعرفون لغات أجنبية أخرى — كالفرنسية والألمانية — بمنأى عن الوقوع فى أخطاء صوتية كثيرة فى نطق هذه اللغات . ومن المحقق أن دراسة هذه اللغات عند تعلمها لكفيلة بالتخلص من هذه الأخطاء أو تقليلها .

وقد فطنت لهذا الأمر بعض الأمم ، فعنيت عناية خاصة بتعليم أصوات لغاتها للراغبين فى تعلمها من الأجانب ، كى يضمنوا سلامة نطقها ، والمحافظة على خواصها الصوتية .

وما أظن أننا أقل من هؤلاء الأقوام غيرة على لغتنا واهتماماً بها . بل إن الظروف الحاضرة لتفرض علينا بذل جهود خاصة فى تعليم لغتنا العربية لغير العرب . ومن أهم وسائل التعليم الجاد وأيسرها كذلك دراسة أصواتها وتعريف الدارسين بها تعريفاً يكفل لهم إجادة نطقها والتخلص من الصعوبات الصوتية التى تواجههم .

والاهتمام بتعريف أصوات العربية لمن يرغب فى تعليمها أصبح أمراً ضرورياً ، إذ لم تعد هذه اللغة لغة محلية محصورة فى حدود جغرافية ضيقة . لقد تجاوزت العربية حدودنا التقليدية وصادفت إقبالا منقطع النظير من الأمم الأفريقية والآسيوية . وهناك فى أوربا وأمريكا — وبخاصة فى أمريكا اللاتينية — بدأت مظاهر الاهتمام تأخذ صوراً أعظم وأقوى مما كانت عليه من ذى قبل . ذلك . لأن حياتنا الجديدة قد دعت الناس إلى مزيد من التعرف علينا والاتصال بنا اتصالا مباشراً . وقد أدرك هؤلاء الناس أن معرفة لغتنا خير سبيل للوصول إلى غايتهم .

أضف إلى هذا أن السنوات الأخيرة قد شهدت طوفاناً من الوافدين للدراسة فى جامعاتنا العربية أو لتعلم العربية وحدها . وما أكثر المشكلات والصعوبات التى واجهت هؤلاء الدارسين فيما يتعلق بتعلمهم هذه اللغة أو بتحصيل قدر كاف منها لمتابعة الدراسة العربية

فى معاهدنا المختلفة . فليست هناك خطة واضحة أو منهج محدد فى هذا الشأن . وإنما تركت الأمور فوضى تسير فى تخبط وتخضع للاجتهاد الفردى القائم على وجهات النظر الشخصية .

والعجيب فى الأمر أن تتعدد الجهات المشرفة على تعليم العربية للوافدين تعدداً من شأنه أن يشتت الجهود ويبعثر الطاقات القادرة على العمل فى غير ما جدوى أو فائدة . فهناك وزارة الثقافة ، وإدارة الوافدين بوزارة التعليم العالى . وإدارة البعوث فى الأزهر . وهناك بالإضافة إلى ذلك العديد من الفصول التى تنشأ فى بعض الكليات للقيام بهذا العمل.

وإذا جاز التسامح فى هذا التشتيت العجيب لسبب أو لآخر فلا يجوز بحال أن تسير هذه الدراسة بدون وضع منهج علمى لدراسة أصوات العربية لهؤلاء الوافدين منذ البداية حتى نهاية المطاف . وحرمان هؤلاء الدارسين من تدريب صوتى منظم لا يعنى إلا عربية مشوهة ممسوخة . كما هو الحال الآن ، وكما يدركه كل من له اتصال بهؤلاء الوافدين .

والأمر فى نظرنا يحتاج إلى جهود موحدة منسقة لوضع منهج محدد ذى طابع تعليمى فى أصوات العربية .. تقوم به أية جهة رسمية . لتقديمه إلى الطلاب الأجانب وتدريبهم على أيدى خبراء متخصصين فى علم الأصوات بعامة وأصوات العربية بخاصة[1] .

وفى رأينا كذلك أن هذا المنهج الصوتى يجب أن يفرض على المدرسين العرب الذين يوفدون إلى البلاد الصديقة والشقيقة لتعليم لغتنا القومية. إن هؤلاء المدرسين هم الآخرين فى أشد الحاجة إلى معرفة جيدة بأصوات هذه اللغة وإلى تدريبهم عليها تدريباً علمياً يمكنهم من القيام بعملهم الإنسانى على خير وجه وأكمله .

إنهم فى هذه البلاد التى يوفدون إليها سوف يواجهون بصعوبات صوتية لا حصر لها ، ومن المؤكد أنهم سوف يفشلون فى مهمتهم إذا لم يقابلوا هذه الصعوبات بوعى ومعرفة بها .

أما أن بالعربية صعوبات صوتية تقابل الأجانب عند تعلمهم لغتنا فهو أمر ثابت محقق . فأصوات الحلق وأقصى الحنك كلها أو جلها تمثل مشكلة صوتية أمام الأجانب

---

(١) تحاول إذاعة جمهورية مصر العربية منذ سنوات تعليم العربية للأجانب بطريق الراديو (Arabic by Radio) على أسس صوتية . ولكننا نلاحظ أن هذه الأسس جاءت سطحية لم تمس جوهر المشكلات التى يقابلها غير العرب فى نطق العربية ، بل إن هذه الأسس لم تسلم من الأخطاء العلمية الكثيرة ، كما يبدو ذلك واضحاً فى مقدمة الكتاب الأول (Book one) الصادر فى سنة ١٩٦٤ .

جميعاً . فالعين مثلا ينطقها البعض كما لو كانت همزة أو هاء ، والحاء تنطق خاء أحياناً . والسنغاليون ينطقون هذا الصوت (الحاء) عيناً . وصوت القاف تسمعه من بعضهم كافاً أو خاء . وقد ينطقهم البعض صوتاً مشوهاً ليست به أية خاصة من خواص القاف العربية . والغانيون ينطقون الجيم زاياً والسين شيناً ، واليابانيون لا يستطيعون التفريق بين اللام والراء .

وأصوات الإطباق أو التفخيم هى الأخرى تعد مشكلة بالنسبة لغير العرب . يضاف إلى هذه الصعوبات فى نطق الأصوات المفردة صعوبات أخرى أشد وأعمق من صاحبتها. تلك هى التى تتعلق بنطق الكلام المتصل . فهذا الكلام المتصل له سمات وخواص صوتية معينة لا يقوى الأجنبى على معرفتها وإجادتها إلا بالتعليم والمران على يد خبير متخصص . من هذه الصعوبات موسيقى الكلام ونماذجه intonation والنبر Stress وتوزيعه فى الكلمة أو الجملة ، وما يعرض للحركات من قصر وطول طبقاً للتركيب المقطعى الذى تقع فيه إلخ . . .

٣ – وضع الأبجديات وإصلاحها :

ودراسة الأصوات اللغوية ذات أهمية كبرى فى وضع الأبجديات الجديدة للغات التى لم تكتب بعد . وفى إصلاح تلك الأبجديات التى تقصر عن الوفاء بأغراضها . أما بالنسبة لوضع الأبجديات الجديدة فقد أصبح أمراً ملحّاً بالنسبة لكثير من اللغات فى العالم وبخاصة فى الأقطار الإفريقية .

وهناك فى بعض هذه البلاد مشكلات ثقافية قومية تتعلق بهذا الموضوع . ففريق يرى وجوب مراعاة الأصل القومى للغة عند وضع أبجديتها. بحيث تشتمل هذه الأبجدية على رموز تكون ذات صيغة متسقة مع طبيعة اللغة المعينة . وبحيث تأخذ شكلا لا يخرجها عن الإطار القومى. وثمة فريق آخر من رأيه اتخاذ الأبجدية اللاتينية أساساً للأبجديات الجديدة. بحجة أن باللاتينية من الرموز ما يفى بحاجة هذه اللغات ، ويدعوى أن الرموز اللاتينية موجودة بالفعل . فالالتجاء إليها أسهل وأيسر من محاولة ابتكار أبجديات جديدة .

وعندنا أن هذا الرأى الثانى ينطوى على خطر كبير ، إذ هو سوف يربط هذه اللغات القومية بلغات أجنبية من ناحية الشكل على الأقل . ولربما يجر هذا الوضع – إن عاجلا أو آجلا– إلى ربط ثقافات هؤلاء القوم بثقافات أجنبية لا تبغى إلا السيادة والسيطرة على

ثقافات المواطنين الإفريقيين . وهذا الرأى كذلك سوف يحرم هؤلاء الناس من لذة المحافظة على لغاتهم القومية شكلا وموضوعاً . وهذه الصورة الشكلية التى تتمثل فى الأبجدية ليست بالأمر الهين . كما يظن بعض الناس . فالأبجدية ليست — فى واقع الأمر — مسألة شكلية بالمعنى المعروف . فهى وإن كانت صورة خارجية إلا أنها مأخوذة ومستمدة من صميم اللغة ومرتبطة بخواصها اللغوية أشد ارتباط ، وهى تصوير كتابى لمادتها الأصلية وهى الأصوات.

ومشكلة وضع الأبجديات الجديدة تعد — فى نظرنا — تحدياً حقيقياً لعلماء الأصوات وغيرهم من رجال التربية والسياسة ، وإنها لتنتظر منهم الحلول العلمية الموضوعية . ولست أظنها بمستعصية عليهم . على شريطة أن تتوفر عناصر الإخلاص وتسرى روح التعاون التى لا تبغى إلا الخير والمصلحة الإنسانية المجردة . ولكن ذلك كله يجب أن يسبق بدراسة صوتية شاملة للغات المراد كتابتها . ويتطلب إجراء التجارب المفصلة والبحوث المعملية الكثيرة التى قد يطول مداها أو يقصر حسب الحالة المعينة . وهذا العمل كله من اختصاص رجال الأصوات وحدهم .

والأبجديات فى عمومها يجب أن تراعى عند وضعها الأول أن تمثل النطق تمثيلا صادقاً . قدر المستطاع . والمشهور أن كل الأبجديات المعروفة لنا الآن قد روعى فيها هذا المبدأ بالفعل . ولكن اللغة بمرور الزمن يصيبها التغيير والتطور . على حين تبقى الأبجدية على صورتها الأولى دون تغيير عادة . ومن ثم يظهر فيها نوع من القصور . ويظهر هذا القصور فى صور عدة أهمها صورتان واضحتان فى كثير من الأبجديات للغات العالم .

الصورة الأولى: تتمثل فى عدم قدرة الأبجدية على تمثيل النطق تمثيلا صادقاً ، بسبب التطور الذى يلحق أصوات اللغة على مر الزمن ، وأمثلة هذه الحركة كثيرة فى لغات مختلفة ، فهناك فى اللغة الإنجليزية مثلا أصوات (صوامت وحركات على سواء) ليست لها رموز معينة فى أبجدية هذه اللغة ، بحيث تصورها تصويراً موحداً ثابتاً . من ذلك الحركة المركبة التى تكتب [ei] بالطريقة الصوتية Phonetic transcription ، فهى تمثل فى الأبجدية العادية Orthography برموز مختلفة ، كما يظهر فى نحو great, plain, make فهذه الحركة ممثلة بالرمز [a] فى الكلمة الأولى وبالرمزين [ai و ea] فى الثانية والثالثة بهذا الترتيب . وصوت الـ [S] فى هذه اللغة تارة يكتب بالرمز [c] كما فى كلمة certain وأخرى يكتب بالرمز [k] فى مثل set . والصوت القصى الانفجارى

المهوس [k] تصوره الأبجدية الإملائية مرة بحرف [k] ومرة ثانية بالرمز [c] وثالثة بالرمز [q] ورابعة بالرمزين [ch] وأمثلة هذه الحالات بالترتيب هى Character, queen, cat, kill

وأمثلة هذه الحالة موجودة أيضاً فى اللغة العربية وإن كان ذلك فى حدود ضيقة . من ذلك مثلا كتابة الفتحة الطويلة برمز الياء ، كما فى نحو رمى . فهذا تصوير مضلل من الناحية الصوتية الصرفة . إذ طبيعة الصوت توجب كتابته بالألف (أى رما[1] مثل غزا) . ويمكن أن تدخل فى هذا الباب (باب عدم قدرة الأبجدية على تصوير النطق أحياناً) نحو « هذا وهذه » فى اللغة العربية . حيث لم تصور الفتحة الطويلة نهائياً . والحق أن هذا القصور فى المثالين الأخيرين ليس سببه التطور . وإنما سببه نقص أصيل فى وضع الأبجدية نفسها . فالفتحة الطويلة — على ما نعلم — لم تكن تمثل فى الكتابة إطلاقاً فى المراحل الأولى من الأبجدية العربية . وبعد فترة زمنية — لا ندرى مداها — رئى تمثيل هذه الفتحة الطويلة بالألف (الذى هو فى الأصل صورة الهمزة)[2] . ولكن بقيت عدة كلمات على الوضع الأول بدون تصوير هذه الفتحة ، كما فى المثالين المذكورين .

أما الصورة الثانية من صور القصور فى الأبجديات فنعنى بها وجود رموز فى هذه الأبجديات دون وجود مقابل صوتى لها فى الكلام المنطوق . وهذه الصورة كذلك سببها التطور أيضاً فى الغالب الأعم . واللغة الإنجليزية مملوءة بأمثلة هذا النوع كما فى نحو knight, talk, psychology ، unique (بمعنى فارس) . فالكلمة الأولى تشتمل على رمز [q] دون مقابل صوتى له ، وتحتوى الكلمة الثانية على رمز [l] والثالثة على الرمز [k] على حين لا يوجد مقابل صوتى لأى من الرمزين فى الكلمتين . أما الكلمة الرابعة فتنتهى بالرمزين [ue] بالرغم من أن الكلمة تنتهى صوتياً بصوت [k] (المصور بالرمز [q]) .

وهناك من هذا النوع أمثلة قليلة جداً فى اللغة العربية ، كما فى نحو رموا ، وعمرو ، حيث كتبت الألف فى نهاية الكلمة والواو فى نهاية الثانية دون حاجة صوتية تدعو إلى ذلك . على أن هذا النهج فى كتابة العربية ليس سببه التطور اللغوى ، وإنما هى حيل كتابية قصد

---

(١) يعلل اللغويون العرب كتابة نحو رمى بالياء بأنها مراعاة للأصل العرقى ، إذ أن هذا الصوت أصله الياء ، كما يظهر ذلك فى المصدر مثلا « رَمْى » ولكن هذا فى رأينا لا يبطل الحقيقة الواضحة وهى أن هذه الكلمة تنتهى صوتياً بفتحة طويلة ، وعلامة الفتحة الطويلة فى العربية هى الألف لا الياء .

(٢) انظر : سر صناعة الإعراب لابن جنى ج ١ ص ٤٦ .

بها إلى التفريق بين نوعين أو أنواع من الصيغ المتشابهة فى الصور الكتابية ، مع اختلافها فى القيم الصرفية والنحوية وفى المعنى كذلك .

أما أهم وجوه القصور فى الأبجدية العربية فيتمثل فى عدم وجود رموز مستقلة لرسم الحركات القصار . وما زلنا حتى اليوم قانعين بتلك العلامات التقليدية المعروفة [ـَ ـِ ـُ] للدلالة على هذه الأصوات .

وفى رأينا أن هذه العلامات التقليدية — بالرغم من وفائها بالغرض إلى حد ما — تمثل قضية لغوية تحتاج إلى دراسة عميقة على مستوى قومى عام. على أننا لسنا — بحال من الأحوال — من أنصار أولئك الذين ينادون باستعمال الرموز اللاتينية لسد هذا النقص . ولدينا من الأسباب ما يدعو إلى أخذ هذا الاتجاه المعارض . ولسوف نعرض لهذا الموضوع بشىء من التفصيل عند الكلام على الأبجديات وأنواعها ووظائفها فى بحوث مقبلة إن شاء الله .

ومهما يكن من أمر فهذه القضايا وأضرابها فى حاجة ماسة إلى النظر والدرس . وليس من سبيل إلى ذلك إلا بدراسة صوتية دقيقة للغة المراد إصلاح أبجديتها .

ومن الواضح أن الجانب التطبيقى لدراسة الأصوات يقف عند هذه الحدود . فهناك مجالا أخرى كثيرة هى فى أشد الحاجة إلى معرفة قدر كاف من أصوات اللغة . سواء أكان ذلك بطريق التلقى المنتظم والدراسة الواعية أم بطريق الممارسة السليمة بواسطة التقليد واحتذاء المثل الصالحة فى النطق .

فالخطباء والمحاضرون والمحامون والقضاة والوعاظ والمذيعون والممثلون والمعلمون (ومعلمو اللغة القومية بوجه خاص) وغير هؤلاء وأولئك من المتعاملين بالكلمة المنطوقة على مستوى عام — كل هؤلاء ليس فى مقدورهم أن يقوموا بعملهم على وجه مقبول يتناسب وقداسة الكلمة التى ينقلونها إلى جماهيرهم دون أن يلموا بصورة أو بأخرى بمشكلات النطق وقواعد الأداء السليم .

والأمهات فى بيوتهن مسئولات عما يعرض لأولادهن من صعوبات صوتية فى سنيهم الأولى . وينبغى أن يعلمن أن الأطفال يتعلمون لغتهم فى مراحلهم الأولى بطريق التقليد الصرف . ومن ثم وجب أن تكون مادة التقليد (وهى اللغة فى حالتنا هذه) . سليمة صحيحة من جميع وجوهها .

ولتحذر الأمهات مداعبة أطفالهن بتكرار ما يقعون فيه من أخطاء النطق ، فإن ذلك سوف يؤدى إلى اكتساب هؤلاء الأطفال عادات سيئة ، قد يكون من الصعب التخلص منها فى حياتهم المقبلة .

ثانياً : فى المجال النظرى المتخصص

إن أية دراسة على أى مستوى من مستويات البحث تعتمد فى كل خطواتها على نتائج الدراسات الصوتية . وذلك بالطبع أمر يمكن إدراكه إذا عرفنا أن الأصوات هى المظاهر الأولى للأحداث اللغوية : وهى كذلك بمثابة اللبنات الأساسية التى يتكون منها البناء الكبير . ولقد صرح بهذا المعنى أحد رواد الدراسات الصوتية فى إنجلترا منذ زمن بعيد . يقول هنرى سويت H. Sweet فى خطاب له إلى مدير جامعة أكسفورد سنة ١٩٠٢ « إن موضوع تخصصى — أى علم الأصوات — موضوع غير ذى جدوى بذاته . ولكنه فى الوقت نفسه أساس كل دراسة لغوية ، سواء أكانت هذه الدراسة دراسة نظرية أو عملية »(١) . ويؤكد أستاذنا فيرث هذا الاتجاه ، مشيراً إلى مدى اعتماد المستويات اللغوية المختلفة على دراسة الأصوات . يقول فيرث : « لا يمكن أن تتم دراسة جادة لعلم المعنى الوصفى semantics descriptive لأية لغة منطوقة ، ما لم تعتمد هذه الدراسة على قواعد صوتية وأنماط تنغيمية intonational forms موثوق بها . وإنه لمن المستحيل أن تبدأ دراسة الصرف بدون تحديد صوتى لعناصره أو بدون التعرف على هذه العناصر بوساطة التلوين الصوتى كما تحدث أحياناً . أما النحو فهو ناقص بدون دراسة الأنماط التنغيمية »(٢) أو النماذج الموسيقية للكلام .

ونستطيع أن ندلل على صحة هذا الكلام بإيراد أمثلة من فروع علم اللغة المختلفة ، محاولين بيان ارتباط هذه العلوم بعلم الأصوات واعتمادها عليه .

فى الصرف :

تلعب الظواهر الصوتية دوراً بارزاً فى تحديد الوحدات الصرفية وبيان قيمتها . ولم يكن

---

(١) See; Firth, Papers in Linguistics, p. 95.

(٢) المرجع السابق ص ١٨ .

فيرث مبالغاً حين يقرر أنه « لا وجود لعلم الصرف بدون علم الأصوات »[١] . ذلك لأن مباحث الصرف مبنية فى أساسها على ما يقرره الأصوات من حقائق وما يرسمه من حدود . وفى رأينا أن كل دراسة صرفية تهمل هذا النهج الذى نشير إليه لابد أن يكون مصيرها الإخفاق والفشل . كما هو الحال فى كثير من مباحث الصرف فى اللغة العربية .

وليست ضرورة اعتماد علم الصرف على علم الأصوات مقصورة على لغة دون أخرى . إن لغات الأرض جميعاً تستوى فى هذا الأمر . وإنما يكون الاختلاف بينها فى نوع استغلال الحقائق الصوتية فى المجال الصرفى وفى مدى هذا الاستغلال ونتائجه . وذلك متوقف بالطبع على خواص اللغة المعينة . كما قد يكون الاختلاف بين هذه اللغات فى مدى اعتمادها على ظاهرة صوتية دون أخرى فى هذا البحث الصرفى أو ذاك .

فالنبر مثلا Stress على مستوى الكلمة المفردة يقتصر دوره فى اللغة العربية على تمييز الأنماط والأوزان الصرفية . فالفعل (الماضى) الثلاثى المجرد دائماً منبور مقطعه الأول ، ولكن موقع هذا النبر يختلف بمجرد اتصال هذا الفعل بلاحقة صرفية Suffix . نقول : ضرب (بنبر المقطع الأول) . ولكن : ضربت ، حيث يقع النبر على المقطع الثانى .

أما فى لغة كالإنجليزية مثلا فإن وظيفة النبر تجتاز هذه الحدود وتقوم بدور آخر هو التمييز بين القيم أو المعانى الصرفية للصيغ . فالكلمة الإنجليزية import مثلا تكون اسماً عندما يقع النبر على المقطع الأول ، ولكنها تكون فعلا عندما يكون النبر على المقطع الثانى (وهو الأخير) وشبيه بهذا السلوك ما يجرى فى اللغة الإسبانية ، فهناك مثلا الكلمة termino التى تتغير وظائفها ومعانيها بتغيير مواقع النبر . فقد تنطق هذه الكلمة termino بنبر المقطع الأول ومعناها حينئذ « نهاية » ، أو ter'mino بوقوع النبر على الثانى وتفيد حينئذ معنى « أنا أنتهى . . » أو termi'no بوضع النبر على المقطع الأخير وتعنى « هو انتهى » .

وهناك فى الصرف العربى بالذات حاجة ملحة إلى الرجوع إلى الحقائق التى يقررها الدرس الصوتى . لقد درج علماء الصرف التقليديون على أن يقولوا مثلا:

قلْ أصلها قولْ

---

(١) المصدر السابق ص ٢٣ .

التقى ساكنان الواو واللام ، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين فصارت قل .

وحقيقة الأمر أن « قل » جاءت على هذه الصورة منذ بداية الأمر . ولم يكن من المستطاع أن تأتى بالصورة الثانية « قول » فى النطق الفعلى . لسبب صوتى ظاهر يرتبط بخواص التركيب المقطعى فى العربية الفصحى . لقد ثبت بالدراسة أن التركيب المقطعى

صوت صامت + حركة طويلة + صوت صامت (= ٢٧٧٢[1]) تركيب ممتنع فى فى هذه اللغة إلا فى حالتين اثنتين هما :

١ — فى حالة الوقف .

٢ — أن تكون الحركة الطويلة متلوة بمثلين مدغمين من أصل الكلمة .

نحو شابة ودابة .

أما ما ذهب إليه هؤلاء الصرفيون فهو عمل افتراضى لا نأخذ به فى الدرس اللغوى الحديث .

وهمزة الوصل فى العربية ظاهرة صوتية صرفية معاً ، وليس من الحكمة دراستها من زاوية دون أخرى . إذ ترتبط الجهتان بعضهما ببعض أوثق ارتباط . فهى من الناحية الصوتية ليست أكثر من تحريك خفيف أو صويت لجأ إليه المتكلم العربى فى بداية الكلمة حيث تمنع طبيعة التركيب المقطعى لهذه اللغة البدء بصوت صامت غير متلو بحركة . ولكن هذه الظاهرة الصوتية مرتبطة بصيغ صرفية لا تتعداها ، ولا تتجاوز حدودها . وهذه الصيغ الصرفية ذاتها أصبحت تمتاز من غيرها بهذه الخاصة الصوتية التى أصبحت جزءاً من تركيبها الصوتى .

والتنوين هو الآخر ظاهرة مهمة تستأهل النظر الصوتى العميق ، قبل أن نعالج من وجهة النظر الصرفية . تلك الوجهة التى عرض لها العرب دون التفات مناسب إلى خواصها الصوتية .

---

(١) C اختصار الكلمة الإنجليزية Consonant = صوت صامت و V تشير إلى vowel = حركة و VV = حركة طويلة .

فى النحو :

النحو هو قمة البحث اللغوى . وهو الهدف الأساسى الذى يسعى اللغويون إلى تحقيقه عند النظر فى اللغة المعينة . وإنه لمن الخطل والخطأ فى آن أن يهمل النحاة الحقائق الصوتية فى إجراء بحوثهم وتحليل مادتهم . فهذه المادة بكل بساطة إنما تتألف من عناصر صوتية وأخرى صرفية . وهذا يعنى من الناحية المنهجية ضرورة ربط النحو ربطاً وثيقاً بعلم الأصوات والصرف .

أما بالنسبة لعلم الصرف فالأمر أصبح واضحاً فى أذهان الكثيرين من اللغويين الآن . حيث يرى هؤلاء أن الصرف لا يعدو أن يكون جزءاً من النحو بمعناه الواسع أو هو خطوة ممهدة له وهما معاً يكونان كلا متكاملا ، هو ما نطلق عليه هنا « علم قواعد اللغة » أو الجراماتيكا grammar ، وإذا جاز الفصل بين جانبى هذا الكل فإنما هو فصل موقوت تفرضه أحياناً ضرورة البحث أو مناهج التعليم التقليدية فى مراحلها الأولى [1] .

ولكن علم الأصوات لم يحظ بهذا الإدراك من لدن عدد غير قليل من الدارسين ، وبخاصة أولئك الذين يسيرون على الدرى التقليد فى بحث اللغة . فهؤلاء لم يستطيعوا حتى الآن أن يتبينوا العلاقة الوثيقة بين هذا العلم وبين النحو ، سواء أكان ذلك بمعناه الواسع (= علم قواعد اللغة) أم بمعناه الضيق ، وهو ما يختص حينئذ بالنظر فى التراكيب وحدها ، دون النظر فى مكوناتها الصرفية نظراً خاصاً . وقد يطلق عليه فى هذه الحالة Syntax أو هو النحو بمفهومه الشائع فى الأوساط العربية ، وقد يسميه بعضهم « علم الإعراب » .

أما المحققون من الدارسين فيرون عكس هذا الاتجاه التقليدى تماماً ، ويذهبون إلى أن النحو فى أساسه مبنى على علم الأصوات ، ويقررون أن هذا الاعتماد له جوانب وصور شتى . بل قد يصرح بعضهم بأن اعتماد النحو على علم الأصوات ربما يتحقق فى أبسط المسائل الصوتية أو ما يعدها الناس كذلك . من ذلك مثلا أن العالم الإسكوتلندى المشهور ألكسندر هيوم A. Hume يرى أن النحو يبنى على نظام التهجئة أو الأبجدية الجيدة ، وهو

---

(١) ومن هذا القبيل ما درجنا عليه هنا من الفصل بين أسئلة الصرف والنحو ، قصداً إلى تبسيط الفكرة وتسهيل متابعتها واستيعابها . على أن الموضوع الأساسى فى هذا المجال ليس هو بيان العلاقة بين الصرف والنحو ، وإنما هو الكشف عن مدى اعتماد علوم اللغة كلها على علم الأصوات .

لذلك ، يرجو جلالة الملك « أن يعمل على إصلاح النحو فى أول فرصة . بمن إصلاح النحو - فيما يذهب إليه هذا العالم - إلا بالنظر أو فى نظام الأبجدية Orthography والحق أن جل علماء الأصوات الإسكوتلنديين منذ زمن بعيد يقررون أن « كل الأبجديات ومن ضمنها النظم الصوتية للكتابة هى فى الحقيقة داخلة فى مجال النحو »[١] . ويؤكد فيرث هذه العلاقة بين الأبجديه - بوصفها مثلا واحداً بسيطاً من أمثلة الحقائق الصوتية - وبين النحو بقوله : « إنما النحو هو المهارة فى معرفة الحروف »[٢] .

أما بالمار الإنجليزى H. H. Palmar فقد أوفى على الغاية فى بيان العلاقة بين علم الأصوات والنحو ، بوضعه كتاباً بأكمله فى قواعد اللغة الإنجليزية المنطوقة على أسس صوتية صرفة . وإنما كان هذ النهج ضرورياً فى نظره ، لأسباب عدة ، منها :

١ - ليس من اللائق أن تعامل اللغة ، كما لو كانت ميتة ، فتسجل قواعدها وأحكامها بطريقة الكتابة العادية . وبات من الضرورى تسجيل هذه الأحكام وتلك القواعد بطريق الكتابة الصوتية Phonetic symbols أو Phonetic transcription إذ هى القادرة بحق على تصوير النطق الحى للغة . وهذا بالطبع يتطلب دراسة صوتية سابقة لهذه اللغة .

٢ - التنغيم أو موسيقى الكلام intonation - وهو ظاهرة صوتية معروفة - جزء لا يتجزأ من النحو .

ومن ثمة يوصى بالمار بتغيير مناهج تعليم القواعد وطرقها التقليدية طريقة تعتمد فى أساسها على ما يقدمه علم الأصوات من حقائق[٣] .

وإذا كان لنا أن نبين صحة هذا الاتجاه وأهميته فى درس النحو فيكفى أن نلقى هنا بأمثلة قليلة من اللغة العربية ، حتى نستطيع التعرف على نوع العلاقة بين علم الأصوات والنحو . ولسوف نرى أنها علاقة وثيقة حملت الكثيرين (ونحن منهم) على القول بأن « علم وظائف الأصوات » Phonology أو الفنولوجيا جزء لا يتجزأ من النحو بمعناه الواسع[٤] .

---

(١) انظر : فيرث ، دراسات فى علم اللغة ص ٩٥ - ٩٦ .

(٢) انظر : السابق ص ١٠٠ .

(٣) Palmar : A Grammar of Spoken English. (on a strictly phonetic basis). pp. xxxiii-xxxivx.

(٤) إنما كان علم وظائف الأصوات Phonology - دون علم الأصوات أو الفوناتيك Phonetics - =

١ ــ التفريق بين أنماط الجمل :

يفرق عادة بين الجملة الإثباتية والجملة الاستفهامية باحتواء الثانية على أداة استفهام أو تغيير طفيف فى نظمها ، على حين أن أهم أساس للتفريق هو التنغيم أو التلوين الموسيقى الذى يعد جزءاً لا يتجزأ من النطق نفسه .

أما أن موسيقى الكلام هى أهم عنصر فى هذا التفريق فشىء واضح تستطيع الأذن الخبيرة إدراكه وتذوقه . وهناك العديد من الأمثلة التى تحتوى على أداة استفهام وهى فى الوقت نفسه ليست باستفهام ، من ذلك مثلا قوله تعالى :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكوراً » .

فقد قرر المفسرون أن « هل » هنا معناها « قد » وفسرها بعضهم بعبارة بسيطة ، ولكنها تحمل القصة كلها فى طيها . يقول هؤلاء إن « هل » للاستفهام التقريرى ، أى الجملة تقريرية affirmative وليست استفهامية ، ومعناها بعبارة البلاغيين التقليديين . أن « هل » خرجت عن أصل معناها . وفيصل الأمر فى ذلك فى رأينا إنما هو التنغيم والموسيقى .

وهناك على العكس من ذلك أمثلة أخرى تخلو تماماً من أدوات الاستفهام وهى فى حقيقة الأمر جمل استفهامية ، واستفيد هذا المعنى من الموسيقى التى صاحبت نطقها . من ذلك ما رآه بعض المفسرين فى قوله تعالى :

« يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك . تبتغى مرضاة أزواجك » .

حيث قرر هؤلاء بأن جملة تبتغى . . . جملة استفهامية ، وتقرير الكلام : أتبتغى ؟ بحذف الهمزة . والحكم بأنها استفهامية إنما يرجع فى حقيقة الأمر إلى تنغيم النطق بصورة توائم الأنماط التنغيمية للجمل الاستفهامية من هذا النوع . وليس هناك من داع ألبتة إلى تقدير محذوف ، إذ الكلام مفهوم بدون هذا التقدير ، ولأن هذا التقدير عمل افتراضى لا يفيد فى الموضوع شيئًا على الإطلاق .

وما لنا نذهب بعيداً وأمامنا اللهجات العامية فى ج . م . ع ، حيث تخلو جملها

= جزءاً من علم النحو بمعناه الواسع ، لأن وظيفة النحو بيان قواعد اللغة المعينة ، وعلم وظائف الأصوات هو المختص بالكشف عن القواعد الصوتية للغة المعينة كذلك . أما الفوناتيك فتجرى أحكامه فى عمومها على الظواهر الصوتية فى اللغات المختلفة ، إذ هو علم عام بحكم وظيفته .

الاستفهامية التى تقتضى الإجابة عنها بلا أو نعم – تخلو هذه الجمل من أداة الاستفهام دائمًا وأبداً . تقول :

شفت أخوك ؟ و فهمت ؟

فتقول فى الإجابة : نعم ، أو لا فيهما .

والذى حدد قيم هاتين الجملتين إنما هو التنغيم فى إطار السياق وملابسات الكلام . ومما يؤكد أهمية التنغيم هنا – بوصفه الفيصل فى الموضوع كله – أن هاتين الجملتين نفسيهما تصلحان – فى الموقف المناسب وبالتنغيم الموسيقى الملائم – لأن تكون جملتين مثبتتين .

والجمل التعجبية ؟ إن أساس تحديدها وتعيين قيمها هو التنغيم الذى يصحب نطقها ولا يناقض ذلك أن يكون تركيبها أو أن تكون مكوناتها عنصراً مساعداً فى الوصول إلى هذا التحديد والتعيين .

٢ – تحديد أنماط الجمل والعبارات :

وهو ضرب قريب من النوع الأول من حيث اعتماده على ظواهر صوتية معينة ، ولكن أمثلته تختلف عن أمثلة النوع فى النظم وفى الدلالة كليهما .

هناك نموذجان من العبارات فى العربية تتحد خواصهما من حيث مكوناتهما الصرفية ، ولكن وجه الخلاف بينهما يتضح فى الحال عندما نراعى طريقة نطقهما ونأخذ فى الحسبان مميزاتهما الصوتية . هذان النموذجان يمكن أن نشير إليهما معًا من حيث تركيبهما الصرفى بالصورة التالية :

اسم معرفة + صفة معرفة .

مثل : محمد الصغير .

فهذه العبارة ، دون مراعاة النطق وخواصها الصوتية يمكن تحليلها نحويًا على وجهين : فقد تكون : مبتدأ وخبراً ، أو مبتدأ وصفة ، فإذا ما أخذنا النواحى الصوتية فى الاعتبار أمكننا تفريع هذه العبارة إلى نموذجين مختلفين نظمًا وإعرابًا ، هكذا :

اسم معرفة + إمكانية السكتة + صفة معرفة + نغمة هابطة .

اسم معرفة + استحالة السكتة + صفة معرفة + نغمة صاعدة .

فعلى الأول تكون العبارة « محمد الصغير » جملة من مبتدأ وخبر ، وبها تم الكلام ،

وأفاد فائدة يقتضيها السياق . وعلى الثانى تكون العبارة مبتدأ وصفة فقط . مع توقع (لا حذف) عنصر صرفى ينضم إلى النظم الموجود لتوافق العبارة المقام فتصير جملة بالمفهوم الشائع .

وهكذا نرى أن الفيصل فى هذا التفريق هو إمكانية السكتة Possibility of pause بين عنصرى العبارة فى الحالة الأولى . مع انتهائها بنغمة هابطة falling tone ، هى دليل الجملة التقريرية العادية . على حين نجد العبارة فى الحالة الثانية تمتاز بعدم إمكانية السكتة بين عنصريها impossibility of pause وبانتهائها بنغمة صاعدة من نوع ما rising tone ، وهى دليل عدم تمام الكلام فى الموقف المعين .

ويمكن التفريق بين الحالتين فى الكتابة باستعمال علامات ترقيم مناسبة لكل حالة . فى الحالة الأولى نضع « نقطة » فى نهاية الجملة ، دلالة على تمام الكلام ، على حين نضع عدداً من النقط فى نهاية العبارة فى الحالة الثانية مشيرين بذلك إلى توقع كلام يتم العبارة . هكذا :

محمد الصغير . (الحالة الأولى)

محمد الصغير . . . . . (الحالة الثانية)

ومن الطريف أن علماء العربية قد استشعروا هذا الفرق ، فجوزوا فى الحالة الأولى وجود ضمير (سموه ضمير الفصل) بين جانبى الجملة للفصل بينها وبين الاحتمال الثانى الذى لا يحتمل هذا الضمير .

والحق أن استغلال هذه الظواهر الصوتية وأمثالها لذو أهمية بالغة فى تحليل المادة النحوية وفى بيان قيم التراكيب ودلالتها . وقد يكون من المفيد أن نعمد مثلا إلى باب « الفصل والوصل » فى قواعد العربية وندرسه من جديد على أسس صوتية فلربما يمكننا هذا الاتجاه من الوصول إلى قواعد أكثر دقة وموضوعية مما نألفه فى كتب البلاغة التقليدية فلقد قالوا مثلا : إنه يجب الوصل فى قول القائل :

لا وأيدك الله .

لدفع إيهام خلاف المقصود (والمقصود الدعاء له لا عليه) . ولاعتزازهم بهذه الواو الواصلة نعتوها بأنها « أحلى من واوات الأصداغ على خدود الملاح »

على أن الأمر فى نظرنا أبسط من هذا بكثير . حيث هناك المقام وما يصحب النطق من خواص صوتية . فكلهاعوامل تعين المراد وتبين ما إذا كان المقصود الدعاء له أو عليه . كما أنه فى المثال المذكور نفسه ، يمكن الاستغناء عن هذه الواوبالوسائل الصوتية . وذلك بأن نتبع أداة النفى بسكتة ، فتكون جملة بذاتها ثم نعقبها بالجملة الأخرى بدون الواو . ويمكن الإشارة إلى ذلك فى الكتابة بوضع نقطة بعد أداة النفى ، هكذا :

لا . أيدك الله .

٣ — توجيه الإعراب :

يعمد النحاة من وقت إلى آخر إلى إعراب المثال الواحد بوجوه مختلفة مهملين — فى أغلب الأحايين — ربط هذه الوجوه بظروف الكلام وملابساته ، ومكتفين بالاعتماد على ما تجوزه قواعد اللغة من احتمالات افتراضية أو عقلية .

ومدار الموضوع فى رأينا يتلخص فى حقيقة بسيطة واحدة : إن المثال الواحد فى الموقف المعين لا يمكن بحال أن يقبل غير وجه واحد من الإعراب ، ذلك الوجه هو ما يقتضيه هذا الموقف وما تتطلبه ملابسات الحال . فإذا ما تعددت وجوه الإعراب — كما يفعل النحاة أحياناً — اقتضى ذلك فى الحال تعدد المواقف . وتعدد المعنى كذلك[1] . وهذا السلوك ، وهو تطويع المثال الواحد لأكثر من موقف يتضمن حتماً تغيراً على وجه ما فى نطقه وفى خواصه الصوتية . وإلا ما جاز هذا التطوع وأصبح الأمر مجرد استبداد بالحقائق وإجبار لها على الخضوع لفروض ذهنية لا تمت إلى الواقع بصلة . وهذا الذى نقرره من حتمية تغير الخواص الصوتية لهذا المثال المفروض جوازه فى أكثر من موقف مبنى على أساس اختصاص كل موقف بميزات معينة . منها — وربما من أهمها فى حالتنا هذه — المميزات الصوتية . وكل هذا يعنى بالضرورة أن ما ظن أنه مثال واحد هو فى واقع الأمر عدد من الأمثلة التى تختلف قلة وكثرة بحسب عدد المواقف ذاتها .

وإذا كانت الخواص الصوتية — فى مثل هذه الحالة — لها دورها فى التحليل وفى توضيح

---

(١) يستثنى من ذلك تعدد وجوه الإعراب، بسبب تعدد صور النطق الفعلى الراجعة إلى تعدد اللهجات . فهذا موضوع آخر له تفسير لغوى يختلف عن الباب الذى نحن فيه . ذلك أن تعدد صور الإعراب فى حالة تعدد اللهجات يعنى الخلط بين المستويات اللغوية . وهذا الخلط أمر ترفضه الدراسات اللغوية الحديثة ، لإصرار هذه الدراسات على وجوب تحديد مستوى الكلام المدروس وبيئته منذ بداية الأمر .

الفرق بين الاحتمالات المختلفة . وجب أخذها فى الحسبان والاعتماد عليها فى توجيه الإعراب كما يتضح لنا ذلك من الأمثلة الآتية :

النعت المقطوع :

ذكر النحاة أن النعت إذا قطع عن المنعوت خرج عن كونه نعتًا اصطلاحيًّا وأصبح يكون جزءاً من جملة أخرى عدوها هم جملة استئنافية لا محل لها من الإعراب . والقول بأن النعت المقطوع جزء من جملة أمر يتمشى مع منهج النحاة . إذ هم يقررون أنه إما خبر لمبتدأ محذوف أو مفعول لفعل محذوف . وهذا يعنى وجود جملة ذات طرفين فى كل حالة : طرف محذوف وهو المبتدأ أو الفعل وطرف مذكور وهو النعت المقطوع .

ونحن نوافق النحاة على أن النعت المقطوع ليس نعتاً اصطلاحيًّا . ولكن لا لأنه يكون جزءاً من جملة أخرى كما قالوا، بل لوجود خاصة صوتية ميزت هذا التركيب وأخرجته من باب النعت . تلك الخاصة هى وجود سكتة بين النعت والمنعوت أو إمكانية وجود هذه السكتة . فهذه الخاصة الصوتية هى العامل الأساسى الذى جعلنا نخرج النعت المقطوع من باب النعت الاصطلاحى . ذلك لأن من خواص النعت الاصطلاحى — فيما نرى — عدم إمكانية السكتة (ومن باب أولى عدوم وجودها ألبتة) بين النعت والمنعوت .

ويلزم من نظرتنا هذه إلى حقيقة النعت أمران :

الأول : أن النعت المقطوع ليس جزءاً من جملة محذوف جزؤها الآخر . وإنما هو فى رأينا جملة بذاتها « فالكريم » (على إرادة قطع النعت) فى قولنا : « مررت بزيد الكريم » جملة ، ولكنها جملة ذات طرف واجد one term-sentence أما كون كلمة « الكريم » فى مثالنا جملة فلأنها وحدة لغوية بها يتم الكلام فى الموقف المناسب . مع تحديدها أو إمكانية تحديدها بوقف Silence سابق ولاحق . وما نقرره هنا هو أحد التعريفات الاصطلاحية المقبولة للجملة .

ومما يزيد الأمر إيضاحاً أن الجمل ذات الطرف الواحد غالبًا ما ترتبط نحويا colligated بجمل سابقة ، وبخاصة جمل الاستفهام . وهذا ما نظن أنه الحال فى موضوع النعت المقطوع الذى نرجح أنه يذكر جوابًا لسؤال صريح أو متوقع ، يوجهه السامع إلى المتكلم. وقد شعر بهذه الحقيقة صاحب التصريح الذى يفسر هذا الموقف بقوله : «كأن الكلام

على تقدير سؤال سائل ، يقول : من هو أو من تعنى »[1] ؟ .

ويمكننا الآن تصوير المسرح اللغوى الذى تجرى فيه الأحداث اللغوية المشتملة على ما يسمى بالنعت المقطوع بالمثال التالى :

(أ)

متكلم : مررت بزيد
سامع : من هو ؟
المتكلم : الكريمُ

} فى حالة الرفع

والكريم بالرفع جملة ذات طرف واحد . امتازت بارتباطها بالجملة الاستفهامية : من هو ؟

(ب)

متكلم : مررت بزيد
سامع : من تعنى (أو تعنى من) ؟
متكلم : الكريمَ

} فى حالة النصب

والكريم بالنصب جملة ذات طرف واحد متصلة نحويًا بالجملة الاستفهامية : من تعنى (أو تعنى من) ؟

الثانى : يلزم من نظرتنا هذه — تلك النظرة التى تعتمد فى التفريق بين النعت المتبع والنعت المقطوع على الخواص الصوتية — أن نسلك فى تحليل النعت وفى توجيه إعرابه مسلكًا جديداً فالنعت فى الجملة الواحدة — طبقًا لهذه النظرة — إما متبع فقط أو مقطوع فقط. وذلك بحسب سياق الحال والمميزات الصوتية لكل صورة . فإذا لم تكن هناك سكتة أو إمكانيتها بين النعت والمنعوت فالنعت واجب الإتباع . وإذا وجدت هذه السكتة أو أمكن وقوعها فالنعت واجب القطع .

ومنهجنا فى هذه القضية مبنى على أساس الواقع اللغوى (لا الافتراض العقلى) الذى

---

(١) التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ، ج ٢ ص ١١٨ .

يعتمد عليه الدرس اللغوى الحديث فى الوصول إلى حقائق اللغة وقواعدها . وهذا الواقع اللغوى يتضمن بداهة أنه من الصعب—إن لم يكن من المستحيل—أن نتصور الموقف اللغوى الواحد يقتضى جملة فيها نعت قابل للإتباع والقطع فى وقت واحد . فالمتكلم ينطق الجملة بصورة واحدة فى موقعها المعين ؛ فإذا ما نطقت على وجه آخر تضمن ذلك بالضرورة وجود موقف آخر ؛ وفى هذه الحالة تصبح جملة جديدة تحتاج إلى نظر مستقل .

النعت بالجملة :

نص النحاة على أن الجملة الإنشائية أو الطلبية لا تقع نعتًا . وهم لذلك يتأولون ما وقع من كلام على خلاف ما رأوا ، كما فى قول الشاعر :

حتى إذا جن الظلام واختلط جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

حيث جاء ما ظاهره الوصف بجملة الاستفهام ، وهى « هل رأيت الذئب قط » ، فأولوا الكلام على تقدير قول محذوف صفة « لمذق » والتقدير : « بمذق مقول عند رؤيته : هل رأيت الذئب قط » .

وعندنا أن جملة « هل رأيت الذئب قط » ليست جملة استفهامية بالمعنى الدقيق ، وإنما هى جملة من نوع خاص قصد بها التفسير والتوضيح ؛ وهى أقرب ما تكون إلى الجملة الخبرية ، فى معناها ومميزاتها اللغوية ، باستثناء احتوائها على الحرف « هل » الذى يؤخذ عادة على أنه أداة استفهام .

أما أن هذه الجملة ليست استفامية فدليله النطق . فهى تنطق مصحوبة بموسيقى وتنغيم ليسا من الأنماط الموسيقية والتنغيمية للجمل الاستفهامية التى تشتمل على الأداة « هل » . وربما يؤيد هذا الذى نقول تلك الحقائق التالية :

١ — هذه الجملة التى معنا لا تتطلب الإجابة عنها بلا أو نعم . ومن المعروف أن من أهم مميزات جمل الاستفهام بهل اقتضاءها الإجابة عنها بأحد هذين الحرفين .

٢ — الجمل الاستفهامية بهل يصح أن تتبع بجملة ندائية ، فتقول : هل فهمت يا محمد ؟ ومن الواضح أن الجملة الحالية لا تقبل نداء بعدها ، لأن الموقف لا يقتضيه .

٣ — فى استطاعتنا أن نضع جملة خبرية فى مكان جملة « هل رأيت الذئب قط » مع بقاء المعنى الأصلى على حاله ، فتقول : « جاءوا بمذق يشبه لون الذئب » .

وحقيقة الأمر أن هذه جملة اكتست بكساء الاستفهام وليست باستفهام . وإنما هي من نمط خاص يؤتى به في مواقف معينة بقصد «التمثيل» أو التوضيح . وهي حرية في مدلولها . وتشبه النماذج العامية المتداولة في نحو قول القائل :

كان وشه أصفر . شفت اللمونة !!

وهذا النمط نفسه نادر الوقوع في الفصحى . ومع ذلك قد يجدر من شيد حصر أمثلته ودراستها دراسة مستقلة .

في مجال المعنى :

يعتمد تحديد المعنى وتوضيحه على خواص صوتية معينة . سواء أكان ذلك على مستوى المعجم أو السيمانتيك Semantics علم المعنى أو الدلالة) .

فمن الوظائف الأساسية للمعجم تسجيل طريقة النطق الصحيح للكلمات . إذ ينبغي أن يكون مرجعاً موثوقاً به في هذه الناحية . وليس من النادر أن تعجز الأبجدية الإملائية العادية عن القيام بهذا الدور . كما هو الحال في كثير من اللغات كالإنجليزية والفرنسية وغيرهما . وبهذا يصبح من الضروري الاعتماد على الرموز الصوتية التي تكفل لنا الوصول إلى هذا الهدف بسهولة ويسر . فهذه الرموز لها قيم محددة في مقدورها تسجيل النطق تسجيلا أميناً ودقيقاً إلى حد كبير .

ومن البديهي أنه ليس في استطاعة أحد استخدام هذه الرموز استخداماً صحيحاً بدون إدراك تام لقيمتها ووظيفتها . وبدون إلمام كاف بالقضايا الصوتية الرئيسية التي ترتبط بها ويعتمد عليها نظام وضع هذه الرموز .

على أن المعجم وحده ليس الوسيلة الأولى والأخيرة لتفسير المعاني وتوضيحها . إن المعجم عادة يقنع بتسجيل المعاني العامة . مهملا في أكثر الأحايين تلك الظلال المعنوية الكثيرة التي قد تفيدها الكلمة في السياقات المختلفة للكلام .

هذه المعاني الأخرى إنما يتم إدراكها إدراكاً دقيقاً في الكلام المنطوق في المواقف اللغوية الحية . هذه المواقف وما يرتبط بها من ظروف وملابسات قد أولاها السيمانتيك عناية فائقة ، فحلل عناصرها وبين دور كل عنصر في هذا المجال .

ولقد تبين لنا من الدراسة أن الخواص الصوتية للكلام المنطوق تمثل عاملا أساسياً في

بيان المعانى والكشف عن دقائقها .

من أهم هذه الخواص موسيقى الكلام . تلك الموسيقى التى تلون النطق وتمنحه معانى متنوعة بحسب السياق والمقام وبحسب الأنماط الموسيقية ذاتها .

فالعبارة : يا إلهى .

مثلا قد تفيد التحسر أو التعجب أو مجرد الالتجاء إلى الله . وذلك مرده إلى التلوين الموسيقى الذى يصاحبها والذى يأتى مواتمًا لظروف الكلام فى الوقت نفسه .

والنتيجة الحتمية لهذا التلوين الذى يستتبع اختلاف المعنى من حالة إلى أخرى هى أن تصبح هذه العبارة عدداً من العبارات ذات السمات الصوتية والنحوية المختلفة . بالرغم من اتفاقها فى مكوناتها الصرفية .

والنبر Stress هو الآخر عامل مهم من عوامل تحديد المعنى وتوضيحه . ففى الجملة :

أنا لم أعرف هذا الرجل :

مثلا . يقع النبر القوى على الفعل واسم الإشارة الذى يليه . ولكن قد يحدث أن تتغير مواقع هذا النبر أو تتغير درجة قوته . بحسب الحالة المعينة والمعنى المطلوب . ويطبق هذا النهج خاصة إذا كان القصد تأكيد صيغة من الصيغ على وجه يفيد التباين والتخالف contrast فقد ينتقل هذا النبر القوى إلى الضمير « أنا » أو إلى أداة النفى « لم » ، على حين تقل درجة القوة فى الكلمات المصاحبة لهاتين الصيغتين . والحصيلة الناتجة عن هذه التوزيع للنبر تتمثل فى إبراز معان مختلفة للجملة .

فى الجوانب الأخرى للبحث اللغوى :

وتمتد أهمية الأصوات إلى مجالات البحث الأخرى فى اللغة . فهناك مثلا دراسة اللهجات التى لا يمكن أن تتم على أى مستوى بدون اعتماد على دراسة صوتية دقيقة . كهذه الدراسة ، كما يقول دانيال جونز : « دراسة ذات طبيعة صوتية فى أساسها » ، كما يعدها جوزيف رايت Joseph Wright : « خير مجال ممكن لعلم الأصوات التطبيقى »[1] .

ومن الواضح أن مظاهر الخلاف بين اللهجات واللغة المشتركة إنما توجد فى الفروق

---

(١) انظر : فيرث ، دراسات فى علم اللغة ص ٩٣ .

الصوتية. تلك الفروق التى تمهد دراستها لدراسات لاحقة لها فى الصرف والنحو وفى غيرهما ، - والتى تعين فى النهاية على إدراك مدى القرب أو البعد بينها وبين اللغة المشتركة التى تفرعت عنها .

ويطبق هذا القول نفسه على الدراسات التاريخية والمقارنة للغة. وقديماً كانت الدراسات المقارنة مقصورة على الجانب الصوتى . لاعتقاد الباحثين أن هذا الجانب هو أظهر صور الخلاف أو أهمها بوصفه خصوة تقود أو ترشد إلى مظاهر الخلاف الأخرى بين اللغات الخاضعة للنظر ..

أما الدراسة التاريخية للغة فإنه من العبث الإقدام عليها أو التعرض لها ما لم ترتكز على درس صوتى دقيق . وإلا فكيف يظفر الباحث التاريخى بتسجيل مظاهر التطور ومراحله التى أصابت اللغة المعينة فى فتراتها التاريخية المتلاحقة ؟ .